

الكتاب الثالث: " عن الحرية والجنون والإبداع " (ال الحلقة السادسة)



نشرة " الإنسان 2019/10/12

السنة الثانية عشرة - العدد: 4424

بروفيسور يحيى الرخاوي - الطب النفسي، مصر

yehiatrakhawy@hotmail.com

.....

.....

مقومات الحرية وقيودها

ما دامت حركة الحرية بهذا التركيب المكثف، والبعيد جزئياً عن الوعي، والممتد طويلاً في الزمن، والمحتاج أساساً للآخر، والمتصل دوماً بالحركة البيولوجية (وهي المشار إليها بالمرونة أساساً في التعريف السابق) فإنه لكي نتدارس فرص الأديب المبدع (كمثال للإبداع) في أن يكون حراً في إبداعه، علينا أن نحاول الإجابة على تساؤلين يكمل أحدهما الآخر، (أو لعلهما واحد).

التساؤل الأول: ما هي المقومات الطولية في نمو الإنسان (مشروع المبدع) حتى تتاح له فرصة مناسبة من الحرية تسمح له بالحركة التي تسمح له بتجاوز العادية لاقتحام الاختيار الأعمق بدرجة من الوعي والحركية، وهي التي تسمح له بالتالي بترجيح جانب الإبداع على جانب الجنون، وبالتحرك ما بين العادية والإبداع، بدلاً من الإفراط في تضخيم العادية خوفاً من الجنون؟

التساؤل الثاني: ما هي معوقات الحرية، وبالتالي معوقات الإبداع؟

وللإجابة على هذين التساؤلين نقول:

المقومات القبلية للحرية (البنية الأساسية)

يحتاج الإنسان -للمتعة بالحرية القادرة على إتاحة الفرصة للإبداع- إلى بنية أساسية تحتية، تسمح بالقدر المناسب لترجيح فعل ما، ويتمثل ذلك فيما يلي:

(1) المقومات الأساسية للحفاظ على الحياة بأبسط قدر من الضروريات.

(2) درجة مناسبة من الأمان الأولى، بالإضافة، في نفس الوقت، إلى درجة مناسبة من الأمان الأولى، وهنا يجدر بنا أن ننبه أن المسألة ليست "أمان" في مقابل "لا أمان"، وإنما هي تناسب دقيق بين هذا وذاك (2)، وأيضاً ترجح مرناً بينهما .

(3) جرعة مناسبة من المعلومات الأساسية.

(ثروة الأبجدية الحركية من المفردات والمعلومات ذات المعنى المناسب لمرحلة استعمالها، والتي لا تغرض وصاية دائمة تجمد محتواها فيها/ فينا = التغذية البيولوجية بالمعلومات الحية) (3).

ما هي المقومات الطولية في نمو الإنسان (مشروع المبدع) حتى تتاح له فرصة مناسبة من الحرية تسمح له بالحركة التي تسمح له بتجاوز العادية لاقتحام الاختيار الأعمق بدرجة من الوعي والحركية.

ما هي معوقات الحرية، وبالتالي معوقات الإبداع؟

يحتاج الإنسان -للمتعة بالحرية إلى المقومات الأساسية للحفاظ على الحياة بأبسط قدر من الضروريات

يحتاج الإنسان -للمتعة بالحرية إلى درجة مناسبة من الأمان الأولى، بالإضافة، في نفس الوقت، إلى درجة مناسبة من الأمان

4) مساحة داخلية مناسبة لحركية المعلومات فى منظومات

(المساحة الداخلية هنا تشير إلى المرونة، والتبادل بين حدود الذوات، ومدى السماح لحركية الداخل التى نسميها أحيانا - من باب التقريب - الخيال أو التخيل أو غير ذلك، مما لا مجال لتفصيله الآن هنا).

5) مساحة خارجية مناسبة لتفعيل حركية المعلومات

(المساحة الخارجية هنا تشير إلى درجة السماح، وفرص النشر، وموضوعية الحوار، وحركة النقد، أنظر بعد: "تطبيقات").

6) حضور حركى (فعلى وفى المتناول) للآخر/ ككيان حقيقى واقعى يقترب ويبتعد (وليس ككيان ذاتى مُسقط).

7) فرص مناسبة لتفعيل الحرية فى فعل قابل للتعديل من خلال التلقى وحضور الآخر جدلا مراجعا .

8) الحفاظ على مدى ودوامية تنشيط النبض الحيوى الإبداعى (بما يحمل الوعى به) بحيث يسمح النبض بإعادة التنظيم وخاصة فى ما هو طور البسط.

على أن ثمة متغيرات قد يبدو فى إعادتها هنا تكرر لمعلومات مدرسية (مثل الاستعداد الوراثى، وظروف البيئة وغير ذلك) لكن ذكر بعضها كأمثلة، من منطلق هذا المفهوم الذى قدمناه للحرية؛ خليق أن يساعد فى إيضاح بعض أبعاد الإشكالة.

ولنأخذ متغيراً متحدياً أساسياً يفيد التركيب الجاهز الذى لا يبدو فيه اختيار أصلا، وهو "الوراثة".

العوامل الوراثية (كمثال)

ونحن نتكلم عن حركية البيولوجى ومرونة الوجود كأساس لما هو حرية لا بد وأن تقفز أسئلة ترجعنا إلى الأصل من حيث التركيب الجيلى، الفردى أو الجماعى، فيا ترى؛ هل ثم استعداد خاص يسمح لفرد أو جنس بفرص ممارسة فعل الحرية (فالإبداع) أكثر من غيره؟
بكلمات أخرى:

هل يمكن أن يتصف فرد أو شعب (كما يشيع فى بعض الحماسة الوطنية أو التمييز العنصرى) بأنه أكثر أو أقل حرية من آخر، هكذا بطبيعته (الوراثية)؟

(ستكون الإجابة عن هذا السؤال - مثلها مثل أغلب الإجابات- تقريبية مبدئية بطبيعة الفرض المقدم).
فى ذلك نقول:

1- إنه لا يوجد مورث اسمه مورث الحرية.

2- إن الذى يمكن أن يورث جزئيا هو "المرونة البيولوجية" (4) إن صح التعبير، وهذه المرونة لها مظاهر متعددة، على الجانبين: ففى ناحية قد تتجلى فيما يسمى الجنون الدورى، كما أنها فى ناحية أخرى قد تظهر فى إبداع فائق ذى حركية بالغة.

3- من المفترض أن تكون هذه القابلية التى قد تورث، مكتسبة من واقع المرونة التى سمحت بتطور النوع عبر تاريخ التطور (5)، وهى تختلف فى درجاتها حسب مسارات التطور السابق لكل نوع، وأيضا لكل مجموعة إثنية، ثم ربما لكل أسرة، حسب الفرص اللاحقة لتدريبها، أو حسب القهر الذى يحد من حركيتها عبر الأجيال. (هذا مع الإقرار أن الكاتب ينتمى إلى قبول توريث العادات المكتسبة ذات الدلالة التطورية من منطلق مفهوم البصم، والمفهوم الأحدث فى الهندسة الوراثية (أنظر بعد)

4- كما أنه يمكن أن يتدرب عليها من لم يرثها بدرجة كافية.

يحتاج الإنسان -للتمتع بالحرية
الى جرعة مناسبة من
المعلومات الأساسية

يحتاج الإنسان -للتمتع بالحرية
الى مساحة داخلية مناسبة
لحركية المعلومات فى
منظومات

يحتاج الإنسان -للتمتع بالحرية
الى مساحة خارجية مناسبة
لتفعيل حركية المعلومات

يحتاج الإنسان -للتمتع بالحرية
الى حضور حركى (فعلى وفى
المتناول) للآخر / ككيان
حقيقى واقعى يقترب ويبتعد
(وليس ككيان ذاتى مُسقط)

إنه لا يوجد مورث اسمه
مورث الحرية

إن الذى يمكن أن يورث
جزئيا هو "المرونة البيولوجية

هذه المرونة والحركية -
زيادة ونقصا- لا تحمل ابتداء
وبشكل نهائى طريقة توجيهها
إلى جنون أو إبداع أو
حادية، وإنما هى تعلن قابلية

المرونة، وسهولة الحركة،
بصفة عامة في مقابل جمود
وانغلاق الإيقاع الحيوي

تظل مسؤولية تعميق وتوريث
الحركية المرنة من مسؤولية
الجنس عن بقائه وتطوره من
خلال البصم (التعلم بالبصم
Imprinting) عبر الأجيال

نحن لاندرج دونية عنصرية أو
تميزا فائقا لفرد أو لجنس
بذاته، وإنما وراثتنا لقوة هذا
المستوى أوداك إنما تشير
إلى مسؤولية الفرد والتربية
في محاولة استيعابه تنوع
تجلياته السلبية والإيجابية

إن الوراثة ليست فائقا في
ذاتها في مواجهة ممارسة
الحرية، لكنها مسؤولية تؤكد
أهمية استيعابه وتوجيه
حركية البيولوجي في تجلياته
المتنوعة في المجال المتاح،
والممكن

أن المعلومات المدخلة إلى
المخ البشري، والتي سيقوم
بمضمها، أو تخزينها ثم إعادة
محاولة مضمها، إنما تكون
معلومات مثيرة ومرنة ومتسقة
وقابلة للتجديد وإعادة
التنظيم بقدر ما تكون ذات
معنى، وليست مجرد "جسم
تجريب محشور" (يستعمل من
الظاهر)

5- وأيضا يمكن أن يفقدها من لم يدعمها وينميها.

6- إن هذه المرونة والحركية - زيادة ونقصا- لا تحمل ابتداء وبشكل نهائي طريقة توجيهها إلى
جنون أو إبداع أو عادية، وإنما هي تعلن قابلية المرونة، وسهولة الحركة، بصفة عامة في مقابل جمود
وانغلاق الإيقاع الحيوي، كما أنها قد ترتبط بزخم طاقة التحريك بشكل أو بآخر.

7- وبالتالي فإن المسؤولية تزداد على المجتمع تجاه توجيه ناتج هذه الحركية - بقدر طاقتها الموروثة
زيادة ونقصا- إلى ما هو إبداع أو إلى ما هو دورات فارغة أو مغلقة (اضطرابات الشخصية) أو شاطحة،
عشوائية، متناثرة (الجنون) .

8- تظل مسؤولية تعميق وتوريث الحركية المرنة من مسؤولية الجنس عن بقائه وتطوره من خلال
البصم (التعلم بالبصم Imprinting) عبر الأجيال.

9- إن الوعي بما يرثه الفرد من تهيؤ يفيد المجتمع والمسؤول المرثي أيا كان موقعه بما يسمح له
بتوجيه وتعديل الفرص المتاحة بإرادة منتظمة، التي هي جزء أيضا من فعل الحرية.

10- وأخيرا تجدر الإشارة إلى الوراثة النوعية للمستويات التطورية (التنظيمات الهرمونية) إذ يختلف
كل فرد، كما تختلف كل عائلة وإلى درجة أقل كل جنس في مسألة قوة وضعف هذه المستويات، وحين
نرث مستوى أقوى من الآخر (أو أقوى مما هو عند غيرنا مما يماثله) إنما نرث تحديا في مواجهة كيف
يمكن أن يتاح لهذا المستوى أن يعبر عن هذا الحضور الغالب، وأين يقع الوعي به من مسألة التحكم
الإرادي في تناسب تعبيره عنه،

إذن نحن لانرث دونية عنصرية أو تميزا فائقا لفرد أو لجنس بذاته، وإنما وراثتنا لقوة هذا المستوى
أوداك إنما تشير إلى مسؤولية الفرد والتربية في محاولة استيعابه تنوع تجلياته السلبية والإيجابية، ومن ثم
تصبح الحرية طولا وحالا هي في ترجيح المسار، الايجابي، أو اختيار المسار السلبي.

خلاصة القول: إن الوراثة ليست عائقا في ذاتها في مواجهة ممارسة الحرية، لكنها مسؤولية تؤكد
أهمية استيعابه وتوجيه حركية البيولوجي في تجلياته المتنوعة في المجال المتاح، والممكن.

.....

ونكمل الأسبوع القادم

[1] - هذا هو الكتاب الثالث باسم "عن الحرية والجنون
والإبداع" نشرت صورته الأولى في مجلة فصول- المجلد السادس
- العدد الرابع 1986 ص(58/30) وقد تم تحديثها دون مساس
بجوهرها، وهو الفصل الثالث من كتاب "حركية الوجود
وتجليات الإبداع" الصادر من المجلس الأعلى للثقافة -
القاهرة، والكتاب يوجد في طبعته الأولى 2007 وهذه هي
الطبعة الثانية بعد أن قُسم إلى أربع كتب أضيف إليها ما
جدد للكاتب بين الطبعتين، وهذا الكتاب هو الثالث.

[2] - في نظير إريك إيكسون (childhood & society)
لهذه المرحلة الأولى وهو يعرض ماهية الثقة الأساسية في
مقابل عدم الثقة Basic trust versus basic mistrust لم
تكن الصياغة إما أو، (إما "ثقة" أو "لا ثقة") وإنما كانت
الصياغة - ("ثقة" في مقابل "لا ثقة")، وقد تناولت هذا في
الدراسة المقارنة للرباعيات الثلاث جاهين والخيام وسرور:
يحيى الرخاوي "رباعيات ورباعيات" ص45-98 المجلد الثالث،
العدد الأول (1982) مجلة الإنسان والتطور الفصلية.

المهم هنا أن الأمان هو ضرورة لحركية الإبداع مثل
الأمان سواء بسواء.

[3] - استعملت تعبير "التغذية البيولوجية"، بقصدية

محددة، وذلك لأمنع ترادف مسألة بيولوجي بما هو حسي عياني، وفي نفس الوقت أعطي للمعلومة أبعادا وحضورا جسديين، فأشير إلى أن المعلومات المدخلة إلى المخ البشري، والتي سيقوم بهضمها، أو تخزينها ثم إعادة محاولة هضمها، إنما تكون معلومات مثرية ومرنة ومتسقة وقابلة للتحريك وإعادة التنظيم بقدر ما تكون ذات معنى، وليست مجرد "جسم غريب محشور" (يستعمل من الظاهر)، وكلما كانت المعلومات المدخلة ذات معنى كان احتمال استعمالها كأبجدية للإبداع واردة، لكن بما أنه لا يوجد لفظ -مثلا- يحمل معناه بالضبط، ولا يوجد هضم وتمثيل كامل للمعلومات أبدا، فإن حركية الحلم والإبداع هي القدرة على مواصلة محاولة إتمام المهمة التي من المفروض ألا تتم أبدا (أنظر أيضا الفصلين الأول والثاني)

كلما كانت المعلومات المدخلة ذات معنى كان احتمال استعمالها كأبجدية للإبداع واردة

يختلف الباحثون في أصل الإيقاع الحيوي للكائن الحي، وللإنسان ضمنا: هل هو هكذا بطبيعة المادة الحية أم أنه نتيجة لتكيفه المادة الحية مع عالم هو منتظم بإيقاع حيوي واتبه منذ الأزل

[4] - ليست مرادفة للمطاوعة العصبية neuronal plasticity، لكنها إشارة إلى حركية البيولوجية كلها من أول برامج المعلومات الداخل خلوية....

[5] - يختلف الباحثون في أصل الإيقاع الحيوي للكائن الحي، وللإنسان ضمنا: هل هو هكذا بطبيعة المادة الحية أم أنه نتيجة لتكيف المادة الحية مع عالم هو منتظم بإيقاع حيوي راتب منذ الأزل، وبصفتي أكثر ميلا إلى مقولة وراثية العادات المكتسبة، فإنني أميل إلى الرأي الأخير، أي إلى أن الإيقاع الحيوي الإنساني لاحق للإيقاع الكوني الأصلي. أنظر مثلا:

Stroebe C. F., in Kaplan H. and Sadock J. (1980) Comprehensive Text Book of Psychiatry] Williams & Wilkins Company P 67 - 70.

إرتباط كامل النص:

<http://www.arabpsynet.com/Rakhaw/RakD121019.pdf>

مؤسسة العلوم النفسية العربية

جائزة " قتيبة شلبي " لشبكة العلوم النفسية العربية للعام 2019

تتشرف شبكة العلوم النفسية العربية بإطلاق اسم:

" البروفيسور قتيبة شلبي "

(الطيب النفساني، العراق / أمريكا)

على جائزتها العام 2019 المنصبة للأعمال العلمية في الطب النفسي

تقديرًا لمسيرته العلمية المميزة

واعترافًا لما قدمه من خدمات جليلة للطب النفسي الشرعي على المستوى العالمي

دعوة لتقديم الترشيحات للجائزة

الترشح للجائزة من بداية من 01 جانفي 2019 الى 30 نوفمبر 2019

شروط الترشح

www.arabpsynet.com/Prizes/Prize2019/APNprize2019.pdf

ارتباطات ذات صلة

دليل جائزة شبكة العلوم النفسية على المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsynet.com/arabpsynet.php?p=2>

دليل جائزة شبكة العلوم النفسية على الفيس بوك

<https://www.facebook.com/Arabpsynet-Award-289735004761329/?ref=bookmarks>